كلنا في المصائب بشر

ما أصعب أن يحول البشر الأرض إلى حفرة من الجحيم مملوءة بأوحال أفعالهم يغوصون فيها بلا خجل أو شعور بالإشمئزاز فهي منهم يشعرون فيها بملمس الحرير.. يسحقون المدن تحت جحيم نيرانهم مشمئزين من النقد البناء ... فما أقسى الشياطين من البشر... لقد تعلمت بالفعل أن كيد الشيطان ضعيف وكيد الإنسان يورثنا الفناء..

هناك على أطلال مدينته وقف ذلك الشيخ الفاني ينظر إليها بعد أن تحولت مبانيها الشاهقة إلى مقبرة كبيرة ... متسائلا هل تحولنا إلى(بومبي) إلى (سدوم وعامورة) أي ذنب اقترف ساكنيها؟ هل ارتكبوا خطيئة الأولين والآخرين؟ ... أهذا بلاء أم ابتلاء ... أه يا عين ما عدت كما الماضي ... لا تستطيعين البكاء ... جفت المآقي كأنما هي صحراء جرداء ... وبخلت علينا بمائها السماء..

آفاق على لمسة ناعمة إنه الطفل الصغير الذي أنقذه من تحت الركام من أسابيع ... لا يعرف كم عمره خمس أو

ست سنوات الله أعلم... ولا يعرف كم عاش تحت الركام ... لكنه سمع ذات صباح وهو يتجول بين الأطلال باحثاً عن شيء يقتات به أو يستفيد منه ...

سمع بكاء متقطعاً متهالكًا ... نظر حوله عله يجد المساعدة من أحد ولكن لا أحد ... وبكل جهده حرك بعض الحجارة فرأى هذا الطفل الهزيل حمله وذهب به إلى منزله المهدم وراح يداوى جروحه التي لا تعد شيئا بالنسبة لسقوط منزله على رأسه..

ويحدث نفسه ... سبحان الله أعطاني عمراً ونجاني من جحيم القنابل ومن براثن البشر..

تناول الطفل الطعام بنهم.. ولم يكن يجيب على أي سؤال وله خمس أيام على هذ الحال ... واليوم سيذهب إلى منطقته مرة أخرى عله يعثر على أحد يعرف له أهلا..

وصل عند الظهيرة ووقفا على أطلال المنزل والمنازل المجاورة وكان المنظر على امتداد البصر صحراء جرداء عدا تلك الأكوام من الحجارة التي شكلتها المنازل المنهارة وبقايا من البشر، فتحولت الحياة إلى موت والنهار إلى ليل

يغلفه غبار القنابل .... آه يا قلبي الحزين متى تعود الحياة هنا ....

وانتبه على صوت بعض من الحجارة وهي تتحرك وتتساقط

دقق النظر ولكن الرؤيا مشوشة غير واضحة لقد فقد نظارته وما وجد البديل عنها ... تحرك مقترباً بهدوء ... إنها امرأة شابة كانت تقف أمام منزل مجاور وتفرد ذراعيها لأقصى درجه وقد تقلصت أصابعها كأنها تحتضن تلك الحجارة المنهارة وتبكي بحرقة وتغمغم بكلمات غير مفهومة... لا أعرف هل هي حالة من الهستيريا أم أنها تحدث نفسها ؟! ..

امسك يد الصغير وتوجه اليها ووقف يراقبها متسمرا في مكانه لا هي توقفت عن البكاء ولا هو استطاع الاقتراب... حتى انهارت مكانها وسكنت تماما كأنها اصبحت جثة هامدة...

جلس بجنابها هو والصغير ثم أشار للصغير أن يلمس وجهها فهو يعلم أن يد الطفل ببراءتها هي ترياق للحزن ... لمسها فانتفضت انتفاضة الطير الذبيح ورفعت وجهها ونظرت إليه ثم للصغير واستمرت تحدق بهما ثم هزت

رأسها ونهضت بتكاسل ... وكانت تتمتع بوجه دقيق الملامح إلا عينيها كانتا كبيرتين بلون غريب كأنه بلون السماء الغائمة.. وتهدل شعرها فغطى جزء من وجهها وتعفر بالتراب وقد كان على طوله يغطى جزء منها كأنه رداء... امسك بيدها ليساعدها للوقوف ... ثم اجلسها بجانب الصغير ... لم تعترض.. جلس ممعنا النظر منتظرا أن تتكلم ...

سألها.. حدثيني يا ابنتي ... فأجابت ... كان ابني وامئ في هذا المنزل.. اعمل واعيلهم بعد أن فقدت الزوج والاب والاخ.. واليوم موعد زيارتي وها أنا ذا اجدهم قد تبخروا لماذا لم أكن معهم..

- كم كان عمر ابنك؟
- عشر سنوات ... انجبته وانا ادرس...

واسترسلت قائلة: كان ابني وصديقي وكل ما بقي لي هو وأمي..

واتممت دراستي وكنت أعيش مع أسرتي وأعمل في شركة صغيرة بمرتب محترم، وزوجي يعمل في محله الصغير للأجهزة ، لكن مات الزوج ، وتبعه الأخ ، واصيب الاب ولم أجد موردا، وبعد اسابيع مات الاب متأثرا بجراحه ولم أجد له الدواء.. ولم يبقى لي سوى الأم والإبن، وها أنا

ذا فقدتهم كذلك ... عملي ما كان يسمح لي بالبقاء معهم ... وأجهشت بالبكاء مرة أخرى....

- **ما هو عملك؟؟**

راحت تضحك بصوت مرتفع هستيري... ثم صمتت.. وابتسمت ابتسامة أقرب الى ابتسامة الموناليزا ... وقالت:

- **اعمل أقدم مهنه امتهنتها المرأة في التاريخ**
- **ماذا؟**
- **نعم ... ألم تفهم؟ أعمل بائعة الهوى ...**
- **كيف؟**
- **فشلت في ان أجد من يحترم آدميتي، مع مرض الأم وعجزها وجوع الصغير وصراخه ... تموت الحرة ولا تآكل بثديها ...لا اعرف كيف أتتني الجرأة على قول موعظة في موقف كهذا ...**
- **لمّ تغضبْ ... نظرت إليه بازدراء.. إذن أخبرني أيها الحر.. ماذا أخبروك عن الحرة حين يموت طفلها بين ذراعيها جوعا ومرضا هل أتركه يموت؟ وماذا عن أمي وهي عاجزة... أخبرني عن تلك الشعارات حين تتهاوى بين يدي أجسادهم وينحل من الجوع عودهم.. ماذا لم أسمع إجابتك؟ ...**

لم يجد الشيخ إجابة ولا يدري ما يقول ... واطرق برأسه قليلا ثم قال:

- دعكِ مني فانا عجوز طحنته السنين.. هلمي معي لا أظنك ستعودين لعملك بعد الآن؟

تبعته محطمة ولم تعترض ... يسيرون متعثرين، وقد اخذ على نفسه عهدا أن يرعى الطفل الصغير والمرأة المحطمة ... وهو الكهل المتهالك البدن وهو من يحتاج لمن يرعاه

وصلوا إلى أطلال منزلٍ شبه منهار وقال: هذا هو بيتي

نظرت إليه قائلة: ما هذا أين تعيش تلك جداران بلا أبواب وبلا شبابيك وحتى السقف لا يحميه..

أجابها الشيخ:

- ابنتي هلمي ولا تحكمي بالمظاهر

وأشار لها، إرفِعِى هذا معي..

- ما هذا؟ ما كل تلك الأخشاب؟
- لا ... إنظري.. ثم مد يده وأمسك بقطعة صغيرة تشبه مقبض الباب ورفعها، فارتفعت تلك الأخشاب بيسر... لقد كانت غطاء لباب سفلي.. نزلوا، وأعاد الباب وأغلقه من الداخل...

نظرت المرأة بتعجب وباستغراب فقال لها:

- عندما بدأت الحرب أعددته أنا وابني للأسرة وكانت زوجتي وزوجته والأولاد يعيشون هنا واستمرينا سنوات حتى كان يوم خرجنا بعد أن هدأ القصف، وكنت مرهقا فغفوت، وخرج الأولاد في المساء ولسخرية القدر، عبث الأطفال بشيء لا أعلم ما هو... انفجر فيهم وماتوا الا ابني، فقد بترت ساقه وذراعه فانظري إلى حالي خمس أحفاد وزوجة، وزوجة ابن وهي ابنة اخي، وابن معوق..
أدخلي فقد رزقني الله أمس ببعض الطعام...

نظرت المرأة وقالت: أين ابنك؟

- سيظهر عن قريب فله قصه مختلفة والآن اجلسي هنا حتى أحضر بعض الطعام لك وللطفل وحاولي أن تتحدثي معه عله يتحدث فمنذ وجدته لم يتحدث معي ...

جلس يراقبهم وهم يأكلون، سبحانه وتعالى، إنه يسبب الأسباب، تلك النظرة الراضية على وجه المرأة ونظرة الحيرة الممزوجة بالسعادة على وجه الطفل وهي تطعمه..

شعر بنبضة مضطربة في قلبه... نعم هي نبضة السعادة التي لم يشعر بها من سنوات، والغريب أنها آلمته، كأنما السعادة أصبحت داء لا ترياق لها في زمن الضياع ...

سمعت المرأة طرقة خفيفة على الباب وحركة المزلاج..

ثم دخل ابنه ببطء وهو يحمل حقيبة على ظهره... نظر حوله وعبس قائلا: - ألا ننتهي كل يوم تحضر لنا اشخاصا جدد نتخلص من شخص تأتي بغيره انتفضت علياء نعم اسمها علياء وقد أغفل عن ذكره... وأشار لها الشيخ

أن اهدئي، فهدأت.. ثم قال لابنه:

- **ماذا يا بني كلنا في المصاب بشر فاهدأ ... وأخبرني اين كنت؟ لي اسبوعا لم أرك؟**

لم يجب ودخل من باب صغير واغلقه خلفه بهدوء قاتل ...

نظرت له علياء متسائلة فأشار لها لننتقل للجهة الأخرى وتحركت بهدوء حاملة الطفل بين ذراعيها تضمه وتهدده وقد غفى مستسلما للنوم...

كم هي غريبة هذه الحياة برغم ما هي فيه من مأساة تفاعلت مع ما تراه ، كأنما لقاءنا كان لغاية وغرض من الخالق سبحانه فبرغم مصابها عاشت بإحساس الأمومة..

أحضر لها كوبا من الشاي واستطرد قائلا:

- **إبني كان ضابطا في الجيش في سلاح المهندسين وكان بارعا في عمله متخصصا في صنع الأجهزة ، ورياضيا من الدرجة الأولى يعشق حمل الاثقال وهذا المكان الذي نجلس فيه كان يعده إبني مكانا للرياضة له ولأصدقائه وكان يكمل توسيعه لتحويله لنادى رياضي وكأنما القدر أراد ان يعده لنا مخبأ او منفذا حتى لا نهرب من البلد مثل من هرب لعدم وجود مكان او ملجأ ...**

وعندما بدأت الحرب واصبح القصف عشوائيا واصبحنا بين فكي الرحى، سلطة شرعية وأخرى غير شرعية يسعون لبسط نفوذهم على مناطق التماس ونحن من تلك المناطق وها أنت ترين النتائج..

اما إبني فلم يُصَب في الجيش، انت سمعت قصتنا.. بترت ساقه اليمنى وبتر ذراعه الأيسر.. وتهدم جزء كبير من المنزل فتصوري سخرية القدر.. إبني في الجيش لعامين ولم يصب بخدش ومنزلنا في وسط القصف لم يسقط منه حجر. وكأنما احتفظ لنا القدر بما هو أقسى من الجميع وكما يقول المثل، كلنا في الهم سواء..

لو تعرفين كم بكيت ، وكم فقدت الرغبة في الحياة ولكنى بقيت اداوي ابنى، احضرت له طبيبا من اصدقائنا عالج مكان

البتر، ولكن ابنى اصبح بحالة من الاكتئاب، ولكنه تخلص من هذا بعد فترة وتحول الى كائن متحرك بلا روح..

وراح إبني يجتهد حتى صنع لنفسه ساقا ويدا بمساعدة بعض أصدقائه..

ربما ليسو جيدين ولكنه أعاد لهما القدرة على الحركة.. لا يهدأ ابدا.. فلم يخرج من الجيش إلا بالإسم فقط، لا اعرف ماذا يصنع ولكنه دائما صامتا غاضبا يخرج لأسابيع ولا أعرف اين يذهب...

نظرت إليه علياء قائلة ... أعانك الله لا أعرف ماذا اقول كلنا في المصائب بشر كما أخبرتني سأذهب الآن..

لا ... هذا لن يحدث ابداً، ابق معنا فانت تحتاجين لنا كما نحتاج لك وكذلك هذا الطفل بحاجة لك ...

انتبهت له.. ونظرت إلى الطفل وضمته بحنان دافق.. تحرك قلبها رغم ما عانى ذلك القلب من الم ورغم مأساتها، انها عاطفة الامومة وحنانها التي تلين الحجر.. ابتسم الشيخ وقال: احمليه ادخل به خلف الستار ضعيه على السرير نامي بجانبه.. فإن للصباح قصة أخرى ...

دخلت بلا نقاش.. كأنما الفت الحرب بين قلوب من تصيبهم المصائب..

لا أعرف ولكن للحياة حكمتها وقصصها التي تدهشنا وتفاجئنا دائما ...